سياسات العقاب ضد المناوئين في العصر الاموي

د/حسناء محمود الدمرداش

جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا

الملخص

مارست الدولة الاموية كل اشكال العقاب الانساني اقتصاديا وبشريا علي المناوئين لسياساتها متجاوزة في ذلك كل الخطوط الحمراء الدينية والانسانية.

واستغل الأمويون حياة واسر وعائلات الثوار الناقمين من الحكم الأموي بما يتعلق بأفراد أسرهم من الزوجة والأولاد ورؤساء العشائر ومعاقبتهم من دون ذنباً اقترفوه، بدافع حصار وترهيب المعارضين والثوار؛ لكبح تحركاتهم وقمع نفوذهم وكوسيلة للضغط عليهم وتغيير مواقفهم وسياساتهم .

Abstact

The Umayyad State exercised all forms of human and economic punishment against those who opposed its policies, bypassing all the red lines of religion and humanity.

The Umayyads took advantage of the life, families and families of the rebels against the Umayyad rule with regard to their family members of the wife, children and tribal leaders, and punished them without committing a sin, out of siege and intimidation of opponents and revolutionaries.

اختلفت الآراء حول الطريقة التي صار بها الأمويون حكاماً ، والوسائل والطرق التي اتبعوها في الوصول إلى الحكم، خاصة في الفترة الزمنية الممتدة من بدية عهد خلافة الخليفة الرابع علي بن أبي طالب وحتى قيام دولتهم. وحيث أنها فترة تقع في الإطار الزمني لعصر الخلافة الراشدة ، فقد صار لزاما علينا البدء بالعوامل التي مهدت الطريق لبني أمية للسيطرة على الأوضاع وإقامة دولتهم ونقل الحكم من بلاد الحجاز إلى بلاد الشام، والتي يمكن ان نجملها في الآتي:

الأوّل:مقترن بسياق الحوادث ووزن المعارك وأثرها في التطور ومدى مساهمتها وتفسيرها للتغيير العظيم الذي حدث في تاريخ الإسلام بتغير الخلافة وانتقال الحكم. (١)

الثاني: وهو الأهم أن المعارك لم تكن هي الأداة التي أدّت إلى قيام الحكم الأموي، باعتبار أنه لم ينصب نفسه بقوة السلاح وغلبة الجيش.

الثالث: أنه يجب ألا نفرط في التخيُّل بأن لشخصية معاوية التأثير الأكبر في صنع الأحداث. فالتاريخ اثبت أنه ليس بوسع الأفراد تغيير الدول لمجرد انهم يمتلكون سمات تميزهم عن الاخرين،كما اثبت ان الظروف الموضوعية لكل مرحلة اهم من دور الفرد وقدرته(٢)

رابعاً: التغيير الكبير الذي حدث في المجتمع والذي كان له شأنه في التأثير علي سير الحوادث، فقد ظهرت طبقة الأعراب والمرتدين التي كانت منزوية عن المشاركة في شؤون المجتمع في عصري أبي بكر وعمر، وكان لظهورها ومشاركتها دور كبير في قلب أحوال المجتمع، لاسيما عندما توقفت الفتوحات عند حد زمني كان يجب أن تتوقف عنده قبل أن تستأنف من جديد.(٣)

خامساً: حدوث تغيير كبير في المجتمع بظهور جيل جديد من الناس أخذ يحتل مكانه في المجتمع، يعيش في عصر غير الذي عاش فيه الصحابة، ويتصف بصفات لا تشبه صفاتهم، جيل ثائر لا يقبل بالواقعية التي كانت سمة مميزة لجيل الصحابة.(٤)

سادساً: نتيجة لكل ما سبقتغير نمط التفكيروظهر مفهوم جديد سيطر علي الحركة التاريخية، ابتعد شيئاً فشيئاً عن العقلية التي سيطرت علي عصرالخلفاء الرّاشدين، ولم تعد هذه العقلية قادرة علي فهم ما جرى في ذلك العصر، وقبول ما حدث فيه.(٥)

وانه مهّد الاتجاه الجديد الطريق أمام استلام زمام الحكم الجديد رجل من رجال أسرة كانت في الجاهلية مقاربة في عقليتها وفهمها للصفة التي كان يتطلبها المجتمع الجديد، لقد كان معاوية بن أبى سفيان يمثّل هذا الجيل في مفهومه، وطموحاته ورغباته في الحياة، وكانت بلاد الشام أهلاً لأن تكون مركزاً وعاصمة لهذا المجتمع الجديد.(٦)

وكانت طبيعة الأمور تقتضي أن يتقدّم أهل الشام للسيطرة على الحكم الذي كاد أن يفلت من يد الرّاشدين. وكان معاوية رجل المرحلة وهو رجل من أسرة كانت في الجاهلية تقترب في عقليتها ومفهومها من الصفات الموجودة في المجتمع الجديد.(٧)

وهكذا نشأت الدّولة الأُمويّة معبّرة عن روح العصر الجديد وحاجاته ثم صادفت من المتاعب ما قدمت لها الأحداث التي أسلمتها الحكم، فهي إذن مدينة لتلك الحوادث بخيرها وشرها، فلم تستطع العمل بمعزل عنها أو الفكاك من أسرها فظلت تنمو مع نموها وتتطور مع تطورها، وبمثل ما كانت سبباً في قيامها كانت دافعا لكل الناقمين عليها للعمل الدءوب على القضاء عليه.(٨)

ادوات الامويين للعقاب ضد المناوئين:

وفي سبيل الحفاظ علي الدولة من اعدائها وازاحة كل من تسول له نفسه التعرض لها او الخروج علي سياساتها اتخذ الامويين عددا من التدابير لعقاب المناوئين والمتطلعين لكرسي الخلافةومن ذلك :

أولاً– المصادرة

وتعني المصادرة لغة المطالبة فيقال صادره على كذا أي طالبه به، فتكون المصادرة هي الوسيلة التي أتخذها الخلفاء الأمراء لاسترداد الأموال، التي استولى عليها بعض من الناس من موظفي الدولة، ولا تعد الأموال المحصلة من المصادرات مصدراً مالياً كبيراً للدولة الأموية، لقلتها بالقياس إلى واردات الدولة الوفيرة بل استخدم لأغراض سياسية.(٩)

تم اتخاذ تدابير و عقوبات حيالاشخاص استغلوا مناصبهم فجمعوا أموال كثيرة، فكانوا يعزلون ويحاسبون لاسترداد هذه الأموال،بدا هذا الامر مبكرا قبل وصول معاوية الي كرسي الخلافة فكتب علي بن ابي طالب إلى زياد بن أبيه، عامله على فارس يطالبه بإرسال أموال الخراج التي تأخر في دفعها. وبعد استشهاد علي انتقلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان الذي وجه أنظاره لمحاسبة زياد بن أبيه عن الأموال التي بحوزته، فأرسل إليه المغيرة بن شعبة الذي استطاع إقناعه بالقدوم إلى الشام بعد أن أعطاه الأمان من قبل معاوية، شرط أن يُقّدم تفاصيل عن الأموال التي كانت معه.(١٠)

ففي سنة (٤٢هـ/٦٢٢م)قدم زياد إلى معاويةفي دمشق وبيّن له باسهاب أوجه صرف المال ووقع الصلح بينهما على أن يؤدي زياد لمعاوية ألف ألف درهم (مليون)، وقيل مليونا درهم.(١١)

ويبدو أن معاوية أتخذ من قضية الأموال ذريعة للضغط على زياد لإرغامه على إعطاء البيعة له، لأن تحصن زياد بقلاع فارس ومعه الأموال ارّق معاوية، وهذا ما عبر عنه بقوله: "داهية العرب ومعه الأموال متحصن بقلاع فارس، يدبر ويتربص الحيل، ما يؤمنني أن يبايع لرجل من أهل هذا البيت فإذاً هو أعاد علي الحرب جَذعة".(١٢)

ولم يكن معاوية مطمئناً لزياد بن أبيه فعمد إلى إقناعه بأنّه أخوه من أبيه وألحقه بنسبه فسماه زياد بن أبي سفيان، وبعد وفاة المغيرة سنة (٥٠هـ/٦٧٠م) جمع معاوية البصرة والكوفة إلى زياد بن أبي سفيان.(١٣)

ولم يكتفِ معاوية بما يأتيه من الواردات بل عمد إلى الاستيلاء علي ما كان للملوك من ضياع وضمها لنفسه وأتباعه واقطاعها أهل بيته ابتدأ من أراضي العراق والشام والجزيرة العربية واليمن وحتى مكة والمدينة، واستغل هذه الأموال في تدعيم علاقاته وجوائزه لتثبيت الحكم وقمع المعارضة.(١٤)

كما نقل بيت المال من الكوفة إلى دمشق، وزاد من عطاء أهل الشام لأجل كسب ودهم وولائهم، وأنقص عطاء أهل العراق لإذلالهم وتخويفهم، حتى فوض لنفسهكل شيء وهذا واضح من خلال قوله:" إن الأرض لله وأنا خليفة الله، فما أخذ من الله فهو لي، وما تركته كان جائز لي"، وهذه هي من آراء الفرقة الجبرية الذي تبنته السلطة الأموية.(١٥)

وبعد القضاء على ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث سنة (٨٣هـ/٧٠٢م) أرسل قائد الجيش الأموي يزيد بن المهلبالأسرى من إتباع ابن الأشعث إلى والي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان بينهم فيروز بن الحصينصاحب الأموال الكثيرة، فطالبه الحجاج بإعطاء أمواله، وأذاقه أنواع مختلفة من العذاببواسطة إيذاء جسمه بالقصب الفارسي المشقق ثم ينضح عليه الخل لإجباره على استخراج أمواله، لكنه تجلد للمصيبة ورفض إعطاء الأموال، ومن شدة العذاب الذي أنزل فيه ولإشرافه على الموت، طلب فيروز بن الحصين من الموكل بحبسه وعذابه أن يخرجه للناس ليتيقنوا بعدم موته ويطالبهم بجمع أمواله التي في ذمتهم، وبعد جمعها أسلمها إليكم، ولما عرف الحجاج بطلبه أمر بإخراجه للناس قال: "أنا فيروز بن الحصين، أن لي عند أقوام مالاً، فمن كان لي عنده شيء فله، وهو منه حلٌ، فلا يؤد أحد درهماً، ليبلغ الشاهد الغائب"، فلما سمع الحجاج بذلك أمر بقتله،وكان السبب وراء رفضه دفع المال تيقنه من أنّه سوف يقتل بسيفالحجاج ورغب في عدم جمع ماله ودمه عند الحجاج، وما يؤكد ذلك طلبه من يزيد بن المهلب عندما قبض عليه أن لا يرسله أسيراً للحجاج خوفاً من سطوته.(١٦)

وبعد أن عُزِل يزيد بن المهلب عن ولاية خراسان سنة (٨٥هـ/٧٠٤م) عُيّن بدلاً عنه أخاه المفضل وذلك خوفاً من الفتنة، وسارع الحجاج إلى مطالبة يزيد بالأموال التي كانت بحوزته، وكانت هذه سياسة الخلفاء الأمويين وولاتهم ومنهم الحجاج خوفاً من تعاظم نفوذ هؤلاء القادة والولاة في أن تكون لهم سيطرة على ناصية الحكم، لان السيطرة السياسية يجب ان تكون مدعومة بالمال الذي يتيح للقادة ادارة شؤونهم المختلفة وإعطاء الرواتب والهبات الى جنودهم، وبعد أن تمكن من القبض على يزيد أودعه السجن، فعزل المفضل عن ولاية خراسان وأعطاها إلى قتيبة بن مسلم الباهلي،وتعرض يزيد إلى أنواع من التعذيب، فسمعت أخته هند بنت المهلب زوجة الحجاج بن يوسف الثقفي صوت أخيها يُعّذَب، فصاحت وطلبت لأخيها الشفاعة، من الحجاج فطلقها، وطالبه بأداء ستة ملايين درهم كانت بحوزته أدى منها يزيد ثلاثة ملايين درهم، ثم تمكن من الهروب مع أخوته من سجن الحجاج واحتمى عند سليمان بن عبد الملك. (١٧)

ثانياً- الجباية

الجباية هي استخراج الأموال من مظانها، وجباية الصدقات جمعها وتوصيلها ويقوم الجابي بجمع الفيء والخراج.(١٨)

لقد اتبع زياد بن أبيه في العراق سياسة ترهيب الناس في جباية الأموال، فعندما جاء إلى معاوية بأموال كثيرة تعجب معاوية من ذلك وهذا ما دعا زياد إلى التفاخر بأن تلك الأموال ما هي إلا جهوده في جباية الأموال من العراق، معبراً عنها بقوله: "يا أمير المؤمنين دوخت لك العراق، وجبيته لك برها وبحرها، وغثها وسمينها، وحملت إليك لبها وقشورها". (١٩)

وفي عهد الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق سنة(٧٥هـ/٦٩٤م) اتبع سياسة أرهقت عامة الناس وأدت إلى سوء أحوالهم المعيشية، وخاصة مع سكان القرى من أهل الذمة الذين يمتهنون الزراعة والرعي حتى بعد اعتناق الإسلام الذي رفع عنهم الجزية، مما دفعهم إلى ترك قراهم والهجرة إلى المدينة للالتحاق بالجيش فدخلوا في سجل العطاء كونه مصدراً مالياً مهماً وهذا انعكس سلباً على قلة وارداتالأقاليم وقلة المحاصيل، الأمر الذي أغاظ الحجاج فخالف سياسة الرسول والصحابة، ففرض الجزية على المسلمين الجدد، وفرض الخراج على الأراضي التي اعتنق أصحابها الإسلام وأجبرهم على العودة إلى قراهم، وكان الحجاج يخاطب هؤلاء الناس: "انتم علوجوعجم، وقراكم أولى بكم...". (٢٠)

وقد تميزت الدولة الأموية بكثرة الفتوحات في المشرق الإسلامي، وكانت معاملة الفاتحين للسكان المحليين تتسم بنوع من القسوة خاصه مع أهل الذمة فكانت تفرض عليهم الجزية حتى بعد اعتناقهم الإسلام ، مما ولد شعوراً لدى

الذين دخلوا إلى الإسلام حديثاً بنوع من التعسف والظلم، فأرسل أهل خراسانسنة(١٠٠هـ/٧١٨م) وفداً برئاسة صالح بن طريفكونه من رجال الدين الأفاضل إلى دار الخلافة للقاء الخليفة عمر بن عبد العزيز وانصبت شكوى صالح بن طريف في التجاوز على مبادئ الإسلام الحنيف والتمثل بأخذ الجزية من عشرين ألف مقاتل وعلاوة على ذلك فهم يقاتلون بلا عطاء ولا أرزاق، فأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز والي خراسان الجراح بن عبد الله الحكميبإسقاط الجزية عن الذين أسلموا من أهل الذمة وصرف لهم الأعطية والأرزاق.(٢١)،

وعلى الرغم من أن الجزية كانت مورداً مهماً من موارد بيت المال، لكن الخليفة عمر بن عبد العزيز حرص على المساواة بين المسلمين ورفع الظلم عن الموالي.(٢٢)

إن سياسة عمر بن العزيز كانت سياسة إصلاحية والدليل على ذلك أنّه ابتدأ حكمه بأن أعاد إلى كل ذي حقاً حقه وابتدأ بأهل بيته، وحاول تطبيق العدالة على مراحل كونه يخشى شدة المعارضة من داخل البيت الأموي.(٢٣)

ثالثا:العقوبات الاجتماعية

لم يقتصر ما يمكن تسميته (العقوبات الاجتماعية والحصار الاجتماعي) على الثائرين ضد السلطة الاموية بل شمل الافراد والقبائل الاخرين في البوادي والقرى والمدن حيث كان يعيش الثوار مع السكان العاديين وكانوا مندمجين معهم، ومع استخدام العنف من قبل جيش السلطة ضد الثوار تعرض السكان للقتل والايذاء وكان من الصعب التفريق بين الثوار وغيرها، واضافه الى ذلك مورس هذا الترهيب من أجل الضغط على الثوار وإطفاء جذوة الثورة في نفوسهم وكسر شوكتهم، حتى يكونوا أداة طوعة بيد السلطة.(٢٤)

وعلى ما يبدو أن هذا النوع من العقابيدأ علي يد معاوية بن أبي سفيان خلال حكم علي بن ابي طالب (٣٥-٤٠هـ/٦٥٥-٦٦٠م) واتضح ذلك من غارات سفيان بن عوف الغامدي على العراق، وغارات بسر بن أرطأة الفزاريعلى الحجاز واليمن.(٢٥)

كان الهدف من هذه الغارات اثبات عدم قدره السلطات في عهد علي بن ابي طالب على حماية الرعايا وتحقيق الامن والاستقرار واظهاره بمظهر العاجز الامر الذي يؤدي الي تأليب ضد حكم علي بن ابي طالب فيتآمروا عليه ويتخلصوا منه ليعيشوا بسلام بينما يخلو لمعاوية الجو ليحقيق غايته ويصل الي كرسي الخلافة.(٢٦)

ولقد تنوعت اساليب العقاب الاجتماعي ومن ذلك:

أولاً- العقاب الاجتماعي علي التاييد للمناوئين

لقد مارس معاوية هذا النوع من الضغط والعقاب بعد توليه الحكم، مع شريحة كبيرة من المجتمع الإسلامي وبالتحديد في العراق إذ أصدر أوامره بترويع العوائل المتمسكة بولائها لعلي بن ابي طالب ، وكان ذلك في إجراءات محسوبة لتوجيه ضربة قوية لشريحة واسعة من المعارضة الشيعية في العراق لاسيما في الكوفة حتى لا يسببوا إرباكا للدولة فسلط عليهم

واليه زياد بن أبيه (٥٠هـ/٦٧٠م) ، "فكان يتتبع الشيعة وهو بهم عارف، لأنه منهم أيام علي بن ابي طالب فقتلهم تحت كل حجر ومدر، وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطاردهم وشردهم عن العراق".(٢٧)

كانت هذه السياسة القاسية التي اتبعها زياد ابن ابيه مع أتباع علي بن ابي طالب بعد أن ألحقه معاوية بالانتساب إلى أبي سفيان بالرغم من تحذير الإمام له من سياسةمعاوية فقال:" إن معاوية كالشيطان الرجيم يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه وعن شماله، فأحذره، ثم احذره والسلام".(٢٨)

ويبدو أن زياد لم يلتفت إلى نصيحة علي بن ابي طالبواتخذ موقفاً مغايراً ومتشدد ضد الشيعة في الكوفة، فمارست السلطة الأموية قمع الثورات المعارضة لسياستها بحزم مع حجر بن عدي الكندي وأبناء عشيرته ورئيسها محمد بن الأشعث، فهدده بقطع نخيل بستانه وهدم داره ومعاقبته بقطع أطرافه، أو إحضار "حجر" في غضون ثلاثة أيام، وكذا الحال مع قبيلة طي التي انضم بعض ابنائها إلى حركة حجر المعارضة فعامل زياد شيخ هذه القبيلة عدي بن حاتم الطائي معاملة قاسية بعد أن امتنع عن تسليم أحد أفراد عشيرته، فعاقبه بالنفي إلى الجبلين.(٢٩)

أما النساء فوقع عليهن العبء الأكبر من معاقبة السلطة الحاكمة أزاء المواقف السياسية لرجالهن وأبنائهن وأصهارهن ذلك، فقد تعرضت آمنة بنت شريد زوجة التابعي عمرو بن الحمق الخزاعيللنفي إلى الشام وعوقبت بالسجن، لموقف زوجها المعارض للسلطة ومساندة حجر،وأراد معاوية بن أبي سفيان ترويعها بعد قتل زوجها في الموصل سنة (٥٠هـ/٦٧٠م) وقيل (٥١هـ/٦٧١م) وهو أول من حمل رأسه في الإسلام،ورمى رأسه في حجرها وهي داخل السجن، فأصابها الخوف والذعر من هذا المنظر المروع، لكنها امرأة مؤمنة تجلدت المصاعب، فوضعت كفها على جبين زوجها ثم قالت:"غيبتموه عني طويلاً ثم أهديتموه إلي قتيلاً فأهلاً بها من هدية غير قالية ومقلية".(٣٠)

وطبقت أيام يزيد بن معاوية (٦٠-٦٤هـ/٦٧٩-٦٨٣م) أقسى أنواع العقاب الاجتماعي لقمع ثورة الحسين بن علي سنة (٦١هـ/٦٨٠م) منها قتل عبدالله بن الحسين وهو طفل رضيع ليس له ذنب سوى انتسابه إلى اهل البيت الشريف(٣١)، وسبي نساءهم وأطفال الحسين بن

عليمن كربلاء إلى الكوفة سيراً ثم إلى دمشق، ومحاولة قتل زين العابدين بن الحسين وهو آخر من تبقى من ذرية الحسين من الرجال، فضلاً عن ترويع السيدة زينب بنت علي بن ابي طالب في مجلس يزيد بدمشق، (٣٢)علماً أن رسول الله (صلي الله عليه وسلم) في حروبه ومغازيه لم يجّوز قتل وسبي الأطفال والنساء من أهل الكتاب. فكيف هو الحال مع المسلمين وآل بيت النبوه.(٣٣)

إن قتل وسبي أطفال ونساء الحسين بن عليوهو سبط النبي محمد (صلي الله عليه وسلم)، هي رسالة وجهت إلى كل العالم الإسلامي آنذاك بأن السلطة الأموية لا تباليبالمراكز الاجتماعية والدينية للمعارضين وقمع أي ثوره تنازعها سلطتها، وخصوصاً حمل الرؤوس، وهذا يحدث للمرة الأولى، وذلك لترهيب الآخرين في حالة معارضة السلطة الأموية.(٣٣)

وتجدر الاشارة ايضا الى ما فعله الجيش الأموي بقيادة مسلم بن عقبة المري بأهل المدينة المنورة سنة (٦٣هـ/٦٨٢م) في واقعة الحرة وذلك باستباحتها سبياً ونهباً وانتهاك حرم أهلها لثلاثة أيام، بأمر من يزيد فطال العقاب والاذي النساء والشيوخ والأطفال دون استثناء، فكان الهدف منها ضربة عسكرية بالدرجة الأولى .(٣٤)

وكذلك ترويع افراد المجتمع المدني للحصول على البيعة ليزيد وأنهم عبيد له يحق له بيعهم وامتلاكهم والتصرف بأموالهم وإذلال شيوخهم وقتل أطفالهم واستباحة نساءهم(٣٥).

كما مارست السلطة الترهيب بدوافع اجتماعية مع القادة وعائلاتهم لقمع تحركاتهم خاصةً بعد القضاء على حركة يزيد بن مهلب وقتله. فقد كانت مشاهد الترهيب ماثلة أمام أعين عائلة آل المهلب، فتمت ملاحقة من تبقى من أبناء البيت المهلبي الذين هربوا مع عوائلهم وأسفرت عن مقتل ثلة منهم.(٣٦)

أما من سيق منهم أسرى وحاملين معهم رؤوس القتلى إلى أمير العراق مسلمة بن عبد الملك في الحيرة، فقرر بيع آل المهلب كعبيد في دار الرزق في الحيرة، لولا تدخل القائد الجراح الحكمي الذي عرض على الأمير مسلمة مائة ألف درهم ثمناً لهم فأخلى سبيلهم،فأرسل الأمير مسلمة جميع الأسرى إلى الشام.(٣٧)

ووقفوا في ذلة أمام الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ/٧١٩-٧٢٣م) بالشام، حيث تعرض تسعة فتية منهم للقتل بأمر من الخليفة ' وربما كان السبب وراء قتلهم خشية وثوبهم

على السلطة بعد بلوغهم، ولم ينجُ من القتل حتى الحدث الصغير بعد ما أبان لهم رغبته في اللحاق بأخوته فأردوه قتيلاً'.(٣٨)

وزيادة في ترويع آل المهلب، أصدرت السلطة الأموية أوامرها بإحراق منازلهم في البصرة وهدمها' كما صودرت أملاكهم المنقولة وغير المنقولة. ' ويمكن أن نستنتج من تلك الحادثة أن معاقبة آل المهلب كانت أيسر شيء على الأمويين، وهي إيذاناً وإعلاماً لكافة الناس بأنه لا مأمن للمعارضين،فأسرة آل المهلب الموالية والفاتحة تعرضت للنكبة والتشهير عند وقوفها بوجه الدولة الأموية.(٣٩)

وقد حدثت في عهد والي العراق يوسف بن عمر الثقفي (١٢٠-١٢٦هـ) /٧٣٧-٧٤٣م) ممارسات عديدة لترويع النساء، اللائي وقفن إلى جانب الثائر زيد بن علي (٤٠) في الكوفة بعد القضاء على ثورته سنة (١٢٢هـ/٧٣٩م)، حيث تتبع يوسف بن عمر أم زوجة زيد بن علي فعذبها؛ لأنّها رضيت بتزويج ابنتها لزيد، وعاملها بقسوة إذ أمر بهدم دارها وحملها إليه بإجراءات أمنية مشددة لترويعها وعند وقوفها أمامه بانت عليها معالم القوة والعزة وأندهش من رباطة جأشها، فأمر شرطته فشقوا ثيابها وقاموا بتعريتها وجلدها بالسياط حتى ماتت بعد ان واقعها(٤١)، وتكرر المشهدالمروع مع أخرى آزرت زيداً حيث مثل بجسدها فأمر بقطع يدها ورجلها ثم أمر بضرب عنقها، وهدم دوراً كثيرة في الكوفة على اثر هذه الحادثة.(٤٢)

ثانياً- العقاب الاجتماعي علي الزواج(المصاهرة) للمناوئين:

لم يقتصر الأمر على المعارضين للسلطة الأموية فحسب، بل شمل جوانب من الحياة الاجتماعية فيما له علاقة بجانب الزواج والطلاق، فعمدت السلطة إلى معاقبة الزوج وإجباره على الطلاق كما حدث مع الأعرابي الذي تخاصم مع زوجته وهي ابنة عمه فحجبها أبوها عنه.(٤٣)

فأشتكى زوجها عند والي البصرة عبد الرحمن بن أم الحكم، فتعاطف معه فطلب حضور الزوجة وأبيها ليسمع رأيهم، فلما نظر إليها أعجبته، فأمر حرسه بحبس الإعرابي، وترويعه بأنواع العذاب وأجبره على طلاقها، ودخل بها عبد الرحمن زوجاً، ولم يكن بوسع ابن عمها إلا أن شد الرحال إلى دمشق وأخبر معاوية بن أبي سفيان بقصته، فكتب معاوية إلى واليه ابن أم الحكم بإرسال المرأة التي عذب زوجها وطلقها وأجبرها على الزواج منه، لكن معاوية

لما حضرت أمامه تعجب من جمالها، إلاّ أنّه أحسن التصرف معها فخيرها بين زوجها الإعرابي، أو ابن أم الحكم، أو منه، لكن المرأة كانت حرة فاختارت زوجها الإعرابي لصفاته البدوية العربية ولعدم تخليه عنها.(٤٤)

كان من بين سنن العرب هو تزويج المرأة دون رضاها، وبالتحديد من أبناء عمومتها، فقيل أن رجلاً من بني أمية خطب النوار بنت أعينفرضيت بهوجعلت أمرها إلى ابن عمها الفرزدق الشاعر، فقال لها اشهدي لي بذلك على نفسك شهوداً ففعلت، فأجتمع الناس، فقال الفرزدق: " اشهدوا إني قد تزوجتها وأصدقتها كذا وكذا فأنا ابن عمها أحق بها" ' فلما سمعت النوار بذلك رفضت زواجها من الفرزدق.(٤٥) ونافرته إلى عبد الله بن الزبير عندما كان بالحجاز والعراق تحت سيطرته، ونزلت عند زوجتهواستشفعت بها، ونزل الفرزدق عند حمزة بن عبد الله بن الزبير وأستشفع به' ونظر عبد الله بن الزبير بسماعه إلى الطرفين فحكملصالح النوار وأمر الفرزدق بتطليقها(٤٦)، فما كان من الفرزدق أمام هذا الموقف ألا أن ينشد أبياته فقال:

أما بنوه فلم تقبل شفاعتهم وشفعت بنت منظور بن زبانا

ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزراً مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا(٤٧)

ولما سمع ابن الزبير هذه الأبيات خشي على نفسه الهجاء من هذا الشاعر، فدعا النوار فقال لها: أن شئت فرقت بينكما وقتلته فلا يهجونا أبداً، وإن شئت سيرته إلى بلاد العدو، قالت: ما أريد واحدة منهما. قال: فإنه ابن عمك وهو فيك راغب، فأزوّجه اياك، فقالت نعم فزوجها ابن الزبير من الفرزدق، فقال الفرزدق خرجنا متباغضين ورجعنا متحابين.(٤٨)

وعندما أحكم عبد الملك بن مروان سيطرته على الحجاز سنة (٧٣هـ/٦٩٢م) أمر بقمع حركة عبد الله بن الزبير حيث تمكن الجيش الأموي من محاربته وقتله، فأراد عبد الملك بن مروان أن يعقد قرآنه على تماضر بنت منظور، والتي وصفت له بأنها أحسن النساء ثغراًوأتمهن جمالاً(٤٩)،

ولكنها عمدت إلى إيذاء نفسها فأخذت فأساً وكسرت به أسنانها، وعندما جاءها الرسول ليخطبها فأذنت له ليراها ويصف حالها لعبد الملك فأن قبل فهي بين يديه، وبعد أن شاهدها

الرسول رجع إلى عبد الملك وأخبره بحالها، فقال أردتها على حسن ثغرها الذي بلغني، وأما الآن فلا حاجة لي فيها.(٥٠)

ولما كانت النساء في عصر قبل الإسلام وحتى في الإسلام، تفضّل الزواج من رجل قريب لها بعد طلاقها أو وفاة زوجها، وذلك لأن الرجل يوفر لها مصدر العيش والحماية الاجتماعية،(٥١) فلم تشذ لبابه بنت عبد الله زوجة عبد الملك عن هذه القاعدة فتزوجت من علي بن عبد الله بن عباس، مما أثار غضب الوليد بن عبد الملك الذي أذاقه أنواع العذاب وعامله بكل قسوة وضربه بالسياط،(٥٢) لأنه كان يعتقد ان زواج أمهات الخلفاء منقصة لهم، لكن لبابة كان لها دافع اخر لزواجها من علي بن عبد الله فعندما ارادت الخروج من الشام الى المدينة تزوجت علي بن عبدالله ليكون محرماً لها في الطريق.(٥٣)

تزوج الحجاج بن يوسف الثقفي من ام كلثومبنت عبد الله بن جعفربعد بناءه لمدينة واسط سنة (٨٣هـ/٧٠٢م)، فكتب خالد بن يزيد الى عبد الملك بنمروان يخبره بذلك، فاجبه عبد الملك متسائلا عن مدى كفائه الحجاج لهذا الزواج، ويبدو ان خالد بن يزيد وعبد الملك كانا خائفين من احتمال ميل الحجاج الى (العلويين) (٥٤)، بعد زواجه من ام كلثوم كتب اليه عبد الملك وامره بتطليق ابنه عبدالله بن جعفر ففعل، ومن هنا نرى ان الحجاج نفسه كان قد شرب من نفس الكاسللعقاب الاجتماعي. (٥٥)

وهنالك روايتين عن زواج الحجاج ان ابن النديم يرى ان الزواج كان برغبة من ابيها لديون كانت في ذمته للحجاج. اما المبرد فيرى ان الزواج كان اكراهاًمن الحجاج ولم يكن ابيها راضياً بالمصاهره وهو الذي اوصل صوته الى خالد بن يزيد الذي اخبر الخليفة في دمشق بذلك. (٥٦)

ولو تأملنا في هذا الحادث لاستبعدنا أن يكون شخص مثل الحجاج يغير فلسفته التعسفية بكره العلويين من اقترانه بأم كلثوم، ولذلك فرأي المبرد أكثر رجاحة.(٥٧)

وفي حادثه اخرى توضح مدى تجبر بعض القادة الامويين، ما قام به يزيد بن المهلب في محاولته اجبار موسى بن الوجيه الحميريفاجبره على طلاق اخته (اخت يزيد) لانه لأنه أصبح لا يتشرف بمصاهرة البسطاء من الناس(٥٨)، وعندرفض موسى لذلك لما كان يشعر بحبه اتجاه زوجته تعرض للتعذيب وطلقها تحت جلد السياط.(٥٩)

ولم يكن خلفاء بني أمية هم الوحيدون الذين مارسواالعقاب والاضطهاد الاجتماعي ضد المناوئين لحكمهم، بل وقفنا على حالة ترهيب اجتماعي كان موضوعها أحد المقربين من عبد الملك بن مروان ويدعى عقيل بن علفة(٦٠)والمشهور بالشرف الرفيع والغيرة، حيث وما تزال الناس ترغب بالمصاهرة من بيت الشرف والمكانة الاجتماعية، فرغب عبد الملك بن مروان في هذه الصفات فخطب بنت عقيل إلى ابنه، فأطرق رأسه ساعة ثم قال: جنبني هجناءك، فضحك عبد الملك لكبريائه،فزوج ابنته إلى يزيد بن عبد الملك بن مروان،(٦١) وبنته الثانية إلى يحيى بن الحكم أخي مروان بن الحكم، فطمع الناس بشرفه فتقدم إبراهيم بن هشام المخزوميلخطوبة إبنة عقيل فأبى أن يزوجه لأنه غيورٌ جاف فهم في ضرب أبنته بالسيف غيرة عليها لولا أن منعه أبنه لكان قتلها بدون سبب.(٦٢)

وكان هناك جاراً لعقيل بن علفه جار يقال له سلامانيورغب في مصاهرة جاره و طلب إحدى بناته، فأغتم عقيل وغضب على جاره من جرأته أن يخطب ابنته، (٦٣)لكن هذه المرة أنزل عقابه بجاره، فأخذه وكتفه بالحبال ودهن أسته بالشحم وقيل الزيت وأدناه من قرية نمل(عين نمل) فأكل النمل عورته(خصيتيه) حتى ورم جسده ثم حلهُ وقال: "يخطب إلي عبد الملك فأرده وتجرؤ أنت علي فتخطب ابنتي". (٦٤)

وربما يري البعض ان اعتداد الإنسان بنفسه شيئاً جميلاً لكن ليس إلى هذا الحد المخالف لشرع الله فقد ورد عن النبي أنه قال:" إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه وإلا تفعلوا تكن فتنة وفسادٌ عريض".(٦٥)

الخاتمة

من خلال العرض السابق توصلنا الي عدة نتائج هامة يمكننا ان نجملها علي النحو الاتي:

١- اعتمد الحكام الامويون علي اهمية العامل الاقتصادي والمال في حياة المعارضين والبشر عموما لإفقار الناس كي يكونوا أداة طيعه بيد الحكام من خلال إتباعهم أسلوب المصادرة والجباية

٢- مارست الدولة الاموية كل اشكال العقاب الانساني اقتصاديا وبشريا علي المناوئين لسياساتها متجاوزة في ذلك كل الخطوط الحمراء الدينية والانسانية.

٣- استغل الأمويون حياة واسر وعائلات الثوار الناقمين من الحكم الأموي بما يتعلق بأفراد أسرهم من الزوجة والأولاد ورؤساء العشائر ومعاقبتهم من دون ذنباً اقترفوه، بدافع حصار وترهيب المعارضين والثوار؛ لكبح تحركاتهم وقمع نفوذهم وكوسيلة للضغط عليهم وتغيير مواقفهم وسياساتهم .

٤- ارغمالامويون بعض ولاتهم علي تطليق زوجاتهم من العوائل الغير موالية لهم خوفاً من دورها بتغيير أفكار هؤلاء ضد نظام حكمهم، وكذلك الحال لبعض الرجال الذين تعرضوا للتعذيب بعد قدومهم على الزواج من نساء البيت الأموي وإجبارهم على الطلاق حتى إذا عقد عليها شرعاً.

٥- احدث الأمويون فوارق اقتصادية بين أفراد المجتمع من خلال العطاء وشرف العطاء والهبات والهدايا إلى المؤيدين لسياستهم وحجبها عن عامة الناس لاسيما المعارضين لسياستهم.

٦- اتبعت أساليب التعذيب والقسر مع العامة من الناس بدافع اجتماعي نتيجة لزيادة الفوارق بين طبقات المجتمع في العصر الاموي نتيجة السياسات الاقتصادية والاجتماعية الخاطئة للامويين.

الهوامش

١. إبراهيم بيضون :الحجاز والدولة الإسلامية في اشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في القرن الأول الهجري، دار النهضة العربية، (بيروت، ١٩٩٥م).ص١٥
٢. رمزية عبد الوهاب الخيروي :إدارة العراق في صدر الإسلام، الناشر دار الحرية، (بغداد، ١٩٧٨م).ص٤١
٣. عبد العزيز الدروي:مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، الناشر مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت، ٢٠٠٧م).ص٥٣
٤. الحاج حسن الشاكري:الاعلام من الصحابة والتابعين، مطبعة ستارة، ط٢، (قم، ١٩٩٥م).ص٣٢
٥. نافع توفيق العبود:آل المهلب بن أبي صفرة ودورهم في التاريخ حتى منتصف القرن الرابع الهجري، مطبعة جامعة بغداد، (بغداد، ١٩٧٥م).ص٦٢
٦. عبد العزيز الدروي:المرجع السابق،ص٥٥
٧. إبراهيم بيضون:المرجع السابق،ص٢٣
٨. نافع توفيق العبود:المرجع السابق،ص٦٥
٩. الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب،:القاموس المحيط، الناشر دار الفكر، (بيروت، ١٩٨٣م).ص٤٥٥.
١٠. خليفة ابن خياط:التاريخ، تح: سهيل زكار،الناشر دار الفكر، (بيروت، د.ت)،ص١٤٥
١١. المرجع السابق،ص١٤٦
١٢. الدينوري:الأخبار الطوال ،تح: عبدالمنعم عامر،الناشر دار إحياءالكتاب، (القاهرة، ١٩٦٠)،ص١١٤
١٣. الطبري، محمد بن جرير:تاريخ الأمم والملوك، تح: محمد أبو الفضل، دار المعارف.القاهرة، ١٩٦٦م،ج٥،ص٧١
١٤. المرجع السابق،ص٧٢
١٥. خليفة بن خياط:المرجع السابق،ص١٥١

١٦. محمد باقرال مجلسي:ملاذ الاخيار في فهم تهذيب الأخبار، تح: مهدي رجائي، مكتبة المرعشي، مطبعة الخيام، (قم، ١٩٨٥م).ص١٥

١٧. ابن عبد ربه:العقد الفريد، تح: محمد مفيد محمد، دار الكتب العلمية،بيروت، ١٩٨٣م،ص٨٥

١٨. الفيروز أبادي،القاموس المحيط، ٦٨/٢.

١٩. اليعقوبي،التاريخ، ١٧٢/٢؛الذهبي،سير أعلام النبلاء، ٣٢٥/٣.

٢٠. مؤلف مجهول،العيون والحدائق في أخبار الحقائق، ٧٤-٧٥؛ابن الأثير،الكامل في التاريخ، ٣٠٣/٤.

٢١. الطبري،تاريخ الرسل والملوك٦٠٢/٥-٦٠٣؛العبود،آلمهلب، ١٢٥.

٢٢. ابن قتيبة،الإمامة والسياسة، ٢٣٦/١؛ابن كثير،البداية والنهاية، ١٨٨/٨.

٢٣. البلاذري،انساب الأشراف، ٣٣٣/٧-٣٣٥.

٢٤. الماوردي،الأحكام السلطانية، ٢٥٥؛زيدان،تاريخ التمدن الإسلامي، ٨٧/٤.

٢٥. التنوخي،المستجاد منفعلات الأجواد، ٢٤٠-٢٤١.

٢٦. البلاذري،أنساب الإشراف، ٣٥٦/٦؛ينظر أيضاً: ابن خلكان،وفيات الأعيان، ٩٩/٦.

٢٧. الطبري،تاريخ الرسل والملوك، ١٧٧/٥؛ابن عبدربه،العقدالفريد، ٢٤٩/٥

٢٨. الطبري،تاريخ الرسل والملوك، ١٥٦/٥؛ابن الأثير،الكامل في التاريخ، ٥٩/٣.

٢٩. مسكويه،تجارب الأمم، ٢٤١/٢-٢٤٢

٣٠. محمد باقرال مجلسي،ملاذ الأخبار في فهمتهذيب الأخبار، ٣٣٤/٦.

٣١. الذهبي،تاريخ الاسلام، ١٣/٧؛العبر في خبرمن غبر، ١٢٦/١

٣٢. البلاذري،أنساب الأشراف، ٢٨٢/٥؛ابن طيفور،بلاغات النساء، ٨٧-٨٩

٣٣. ابن عساكر،تاريخ مدينة دمشق، ٤١/٦٩؛ابن الأثير،الكامل في التاريخ،أسدالغابة، ١٠٠/٤.

٣٤. ابن أعثم،الفتوح، ١٢٠/٥-١٢٣؛ابن طاووس،الله وففي قتلى الطفوف، ٩١-٩٢.

٣٥. الدينوري،الأخبارالطوال، ٣٩٢؛المسعودي،مروج الذهب، ٢٦٩/٣.

٣٦. العبود،آلالم هلب، ١٢٥-١٢٦.
٣٧. البلاذري،أنساب الأشراف، ٤٤٨/٣.
٣٨. العبود:مرجع سابق،ص١٣٢
٣٩. ابن طيفور :مرجع سابق،ص٩٣
٤٠. المرجع السابق،ص٩٦
٤١. البلاذري،أنساب الأشراف، ٤٥١/٣
٤٢. المصدر نفسه،ص٤٥٢
٤٣. التنوخي،المستجاد من فعلات الأجواد، ٢٤٠-٢٤١.
٤٤. أبي الفرج الأصفهاني،الأغاني، ٣٦٧/٩؛القاضي المغربي،شرح الأخبار، ٢٦٣/٣.
٤٥. ابن الجوزي،المنتظم، ١٥٠/٧.
٤٦. الزبيري،نسب قريش، ٢٤٠-٢٤٣؛الزبير بن بكار،جمهرة نسب قريش، ٢٣٢.
٤٧. أبي الفرج الأصفهاني،الأغاني، ٢٢٢/٩-٢٢٣؛الجواليقي،شرح أدب الكاتب، ٣٠٦.
٤٨. ابن حمدون،التذكرة الحمدونية، ١٩٣/٩
٤٩. الشيرازي،الدرجات الرفيعة، ٥٤٤.
٥٠. ابن سعد،الطبقات الكبرى، ٢٥/٦.
٥١. ابن طاووس،الله وففي قتلى الطفوف، ٩١-٩٢.
٥٢. البلاذري،أنساب الأشراف، ٤١٦/٣-٤١٧.
٥٣. الجهشياري،الوزراء والكتاب، ٢٧.
٥٤. الطبري،تاريخ الرسل والملوك، ٥٥٩/٦
٥٥. محمد باقر المجلسي،ملاذ الأخبار في فهم تهذيب الأخبار، ٣٣٤/٦.
٥٦. أبي الفرج الأصفهاني،الأغاني،٢١٥/٨
٥٧. بن الأثير،الكامل في التاريخ، ١٠٦/٤.
٥٨. الحائري،شجرة طوبى، ٨٢/١
٥٩. ابن حبان البستي،الثقات، ٢٧٥/٣.

٦٠. الماوردي،الأحكام السلطانية، ٧-٢

٦١. ابن قتيبة،الإمامة والسياسة، ٢٣٦/١

٦٢. الكامل في التاريخ، ٣٠٣/٤؛العبود،آلالم هلب، ١٢٤.

٦٣. المبرد،الكامل في اللغة والأدب، ١٦١/٢؛ابن خلكان،وفيات الأعيان، ٢٧٤/٣-٢٧٥.

٦٤. ابن أبي الدم، تاريخ المظفري، ٢٤٩،ابن قيم الجوزية،أخبارالنساء، ٣٩.

٦٥. ابن قتيبة:مرجع سابق،ص٣٣٥